علي جرادات*

عبد القادر أبو الفحم: أول شهيد للحركة الأسيرة

كُتب كثير عن التجربة المديدة للأسرى الفلسطينيين، بيد أن بعدها الإنساني المضمر في بعدها الوطني، قليلاً ما تم تناوله، إذ طغى التركيز عليها كمثال للبطولة والمعاناة الوطنية، وعلى أنها ملحمة إنسانية نزف في خضمها مئات الآلاف من الشباب الفلسطينيين والفلسطينيات نبضاً حياتياً هائلاً، بذلوه في مقارعة السجّان. نزف الأسرى الفلسطينيون هذا النبض الحياتي كله طوعاً، لا لتبقى قضية شعبهم الوطنية وتنتصر فحسب، بل كمساهمة في الدفاع عن قيم الحرية الإنسانية السامية أيضاً.

كما ساد كثير من التعميم والتجريد في تناول التجربة كحكاية، مع أنها تتضمن عدداً لا يحصى من صور المعاناة والبطولة الملموسة، هي، قبل تجريدها وتعميمها، أحداث حسية لقصص عاشها أفراد معينون، وهؤلاء يجب أن تُعرف تجاربهم بدمها ولحمها، أي قبل أن تيبس شراييها في أرقام إحصائية جامدة. وللشهيد عبد القادر أبو الفحم، أول شهداء الإضرابات المفتوحة عن الطعام، قصة واقعية مميزة، بل ربما فريدة ونادرة، تستحق التظهير والتوثيق.

مَن هو؟

وفقاً للمعطيات التي نملكها، فإن عبد القادر جبر أحمد أبو الفحم هو أول شهداء الحركة الأسيرة، ولد في قرية برير، قضاء غزة، في فلسطين في سنة ١٩٢٩، أي سنة اندلاع ثورة البراق، وترعرع في أسرة فلاحية بين حقول القمح والسمسم وأشجار الجميز وبيارات البرتقال.

وقعت النكبة الكبرى حين كان في التاسعة عشرة، فتشرد مع أهل قريته التي دُمرت في سنة ١٩٤٨، واستقر في مخيم جباليا في قطاع غزة. ولا تزال عائلته تقيم في حي الجرن في جباليا البلد. وقد تزوج فيما بعد، وأنجب ابنة سماها فتحية، وابناً سماه حاتم.

نشأ فلاحاً وأضحى لاجئاً

هكذا تحول كغيره من أبناء الشعب الفلسطيني من فلاح إلى لاجئ. غادر سهوب قريته حاملاً ذاكرة الألم، فامتلأ وجدانه بالسؤال الكبير: لماذا حدث ما حدث من تطهير عرقي؟! وظل السؤال يكبر، وظل عبد القادر يبحث عن إجابة بين عيون اللاجئين وخيامهم، حتى كان الردّ على مؤامرة السلاح الفاسد بثورة أشعلتها حفنة من الضباط الأحرار في مصر الذين احترقت أصابعهم وأفئدتهم بنار الهزيمة. وما إن استقر المقام بثورة تموز/يوليو ١٩٥٢

(*) كاتب فلسطيني.

حتى صاح عبد القادر: وجدتها. فالمفتاح هو أن تحتفظ بمفتاح بيتك، لكن أن يكون لديك أيضاً مفتاح آخر... كان المفتاح هو القتال، وكان الخيار حياة الجندية في جيش ثورة أعلنت بوضوح عداءها لمَن تسبب بالهزيمة من قيادات تقليدية، ولأصل الداء وسبب التشرد، وهو الاستعمار.

وبعد مرور عام على نجاح ثورة الضباط الأحرار، التحق الشهيد بالقوات المصرية في سنة ١٩٥٣، وأتمّ عدة دورات عسكرية رفّع بعدها إلى رتبة عريف ثم إلى رتبة رقيب، كما أكمل دورة رقباء في مصر في أوائل سنة ١٩٦٠، وكان الأول على الدورة، فرُفّع إلى رتبة رقيب أول، وكان مثالاً يحتذى به، وحاز احترام كل مَن عرفه من ضباط مصريين وفلسطينيين.

وهذا ما كان. فقد مضى عبد القادر إلى غايته جندياً في جيش ثورة وليدة، حاملاً حلمه بالتحرير والعودة. ولأن الجندية هنا خيار لا إجبار، بذل الرجل أقصى جهده كي يكون الأول، لا ليرتقي رتبة، وإنما قناعة منه بأن ذلك يعجّل في رحلة العودة، ويقصّر أجل اللجوء.

كان عبد القادر صاحب نكتة، لطيف المعشر، أميناً وصادقاً، ولمّا بدأ تكوين جيش التحرير الفلسطيني في أواسط الستينيات كان "أبو حاتم" هو المسؤول عن مركز تدريب خان يونس، وخاض حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧، وكان ضمن كتيبة الصاعقة التي قاتلت بشراسة مشهود لها.

لم تُثنِه هزيمة ١٩٦٧ عن النضال، فكان من مؤسسي "قوات التحرير الشعبية"، وشارك في تدريب المناضلين عسكرياً، كما شارك في عمليات عسكرية مميزة نظراً إلى كفاءاته العسكرية التي كان يُضرب بها المثل. جنّد كثيرين من الشبان في صفوف "قوات التحرير الشعبية" ودرّبهم على السلاح، وكان قائداً للتشكيلات العسكرية لقوات التحرير الشعبية في قطاع غزة، وخلال إحدى عملياته العسكرية في سنة ١٩٦٩ أصيب بجروح بالغة في الصدر والبطن، وتم اعتقاله، وحُكم عليه بالسجن المؤبد عدة مرات.

في السجن قائداً

على الرغم من جروحه البالغة التي ظل يعاني آلامها حتى استشهاده، لمع عبد القادر في السجن كشخصية قيادية وطنية محورية كان لها شأن مؤثر في بدايات التأسيس لتنظيم صفوف الأسرى وقيادة نضالاتهم، أي في مرحلة الحاجة إلى طلائع صلبة أسست درب "حاصر حاصرك" في مواجهة طغيان السجّان وعسف مخاطبته بـ "حاضر يا سيدي"، وتمردت على السير في ساحة السجن مع تكبيل اليدين وطأطأة الرأس، وثارت على الانصياع لأوامر عدم استخدام "البرش" والتمدد عليه إلاّ في ساعات النوم ليلاً، وكسرت سياسة "عزل" الأسرى والاعتداء الجسدي عليهم وشتمهم بالكلمات النابية، وتصدت لذل جز شعر الرأس كما يجز الراعي شعر الماعز، وصرخت ضد إبقاء لوح "الصاج" على نوافذ السجن وممراته، وانتفضت على سياسة سوء التغذية والمعاملة الصحية، وهبّت لإنهاء سياسة الحَجْرِ الثقافي ومنع دخول الكتب والدفاتر والأقلام إلى السجن. هكذا انتزع الأسرى، بتنظيم أنفسهم وبتضحياتهم، إنجازات متراكمة خففت معاناة عيشهم في ضيق السجن، الضيّق في حيزه، وتفصيلات يومه، وتدني اهتماماته، وندرة إمكاناته، وضيق أفق حرّاسه الذين ينفذون بصورة آلية ومزاجية مخطط قواعد "مصلحة إدارة السجون" الإسرائيلية التي ما زالت تبرمج حياة السجين الفلسطيني وفق جدول مرسوم من خارجه: لا يأكل أو ينام أو يصحو أو يتنقل أو يقرأ أو يرى أهله.

في أتون معركة الاستشهاد

في هذا الضيق المُذل، وفي مواجهته، وفي الخامس من أيار/مايو ١٩٧٠، كان الانفجار المذهل، فقد انفجرت الإرادة الإنسانية الثائرة معلنة ساعة الصفر، فكان الإضراب المفتوح لأسرى سجن عسقلان عن الطعام. وكان عبد القادر لا يزال يعاني آلام جراحه، ومع ذلك، رفض إعفاءه من المشاركة في الإضراب، وأصر على خوض المعركة، ليكون،

كما كان دائماً، في المقدمة، فالإضراب امتحان إرادة، والرجل يمتلك ما يكفي من الإرادة والصلابة.

ووفقاً لما كُتب عن ذلك الإضراب الشهير، وخصوصاً ما وثّقه أسيران شاركا في الإضراب، هما أحمد أبو غوش وقدري أبو بكر في كتاب "سجون الاحتلال الإسرائيلي: رحلة من القمع والنضال إلى السلطة الثورية"، يتضح أنه قبل يوم من الشروع في المعركة، وبينما كان عبد القادر جالساً على "برشه" يتأرجح بين الحياة والموت، جرّاء جروحه التي لم تكن برأت بعد، تقدم منه زميله يوسف للحديث معه باسم مجموع زملائه. ابتسم عبد القادر. حزر سبب قدوم يوسف. إنه يحمل رجاء زملائه باستثنائه من قرار خوض الإضراب نظراً إلى حالته الصحية، وما يشكله ذلك من خطر حقيقي على حياته. قال يوسف:

ـ "نتوسل إليك أن تقبل القرار الوطني بإعفائك من المشاركة في الإضراب. فحياتك في خطر!!!" فردّ عبد القادر بابتسامة تعلو محياه:

ـ "ماذا يعني الإعفاء؟! ألا يعني الارتماء جانباً ومشاهدة الآخرين يخوضون المعركة؟! هل منكم مَن يقبل أن أقبع في ركن الغرفة كالجبناء أنظر من بعيد إلى العطاء والتضحية؟! أَلستُ ابن القضية التي تدافعون عنها؟! ألستُ مثلكم أتعرض للتعذيب يومياً؟! ماذا يعني الإعفاء؟! إنها كلمة قذرة زُينت لتأخذ شكلاً مغايراً لحقيقتها، لكنها ظلت تحمل المعنى نفسه. إنها تعني التخلف عن النضال، وفي أجمل معانيها تعني التقاعس والعجز عن أداء الواجب الوطني والإنساني ضد العبودية، ودالتها ذُلّ مخاطبة السجان بـ 'حاضر يا سيدي'. أنا لم أبلغ سن العجز بعد، ولن أجبن، وما زلت قادراً على العطاء. أنا منكم ومعكم حتى ننتصر."

ـ "نعم، لكنك مصاب"، قال يوسف، لكن عبد القادر لم يسمح له بأن يكمل، وقال:

ـ "أنا منكم، لا تظلموني، لستم أفضل مني، ويحق لي النضال كما يحق لكم. النضال ليس مهمة ينفذها المرء، ثم يجلس القرفصاء يتحدث عنها، فثورية الإنسان عندي تقاس بما يقدمه في هذه اللحظة، وبما سيقدمه في المستقبل، لا بما قدمه قبل أعوام أو أيام. النضال معناه أن نحيا ونقدم ونعطي، وأن نشعل شموعاً تضيء الطريق لأبنائي وأبنائكم. النضال عملية صعبة فرضتها العبودية، وما دامت قائمة سأظل أُقدم وأعطي. أنا لا أريدكم أنانيين. لا تأخذوا الشرف كله، أعطوني نصيبي منه."

قال يوسف في محاولة أخيرة لثني عبد القادر:

ـ "نعم، لكن حياتك....." قاطعه عبد القادر بحسم قائلاً:

ـ "اسمعوا، أنا لا أُحب الموت. أنا أُحب أبنائي، وأتمنى أن أعيش ويُفرج عني لأُعانق فتحية وحاتم، وأحيا مع زوجتي ونربيهم معاً. لكنني لا أخاف الموت، ولن أجبن، وسأخوض المعركة معكم. اليوم تتجلى الحياة في رفض العبودية. هذه معركة مفروضة، وسأشارك فيها حتى آخر نقطة من دمي."

ودقت ساعة الصفر

أشرقت شمس ١٩٧٠/٧/٥. اخترق نورها شقوق لوح الصاج الذي يغطي نوافذ غرف سجن عسقلان. إنه يوم التحدي وثاني يوم إضراب في تاريخ إضرابات الأسرى الفلسطينيين المفتوحة عن الطعام، فقد جرى أول إضراب في سجن الرملة في سنة ١٩٦٩، ودام أحد عشر يوماً.

الساعة السادسة والنصف صباحاً. تقدم ضابط "العدد" الإسرائيلي (المصري الأصل) "موشيه". ناوله أحد الأسرى قائمة بمطالبهم كُتبت على ورقة علبة سجائر، فالدفاتر لم تكن تدخل السجن بعد. قرأ "موشيه" قائمة المطالب، وانطلق يسأل الأسرى في غرفهم:

ـ "مش عايزين تاكلو؟"

ـ لا... لنا مطالب."

ـ "حتاكلو بالقوة!!!"

مضى أول وثاني يوم إضراب من دون أن تحرك إدارة السجن ساكناً. ظل الإهمال سيد الموقف. غرف السجن تعيش حالة هدوء تام تخرقه "خرخشة" مفاتيح حراس السجن الذين يجوبون ممراته، وهم

يحملون الهراوات وعبوات الغاز المسيل للدموع.

في اليوم الثالث طاف ممرض السجن "يودا الجزار"، كما كان يسميه الأسرى، على غرف السجن ناصحاً الأسرى واحداً تلو الآخر بالقول:

ـ "الإضراب ليس في مصلحتكم.... ويضر بصحتكم." وكان ردّ الأسرى أنهم لن يتناولوا الطعام قبل تنفيذ مطالبهم.

جاء دور عبد القادر. كرر "يودا" المعزوفة نفسها، وتلقى الرد نفسه. أمر "يودا" حراس السجن بإخراج عبد القادر إلى عيادة السجن مع عدد آخر من الأسرى المرضى.

تمدد عبد القادر بعد فك قيده على سرير العيادة. طلب منه "يودا الجزار" فك إضرابه، وقدم له كأساً من الحليب الممزوج بالملح. كان عبد القادر يعي أن أقدام الموت تدنو من عتبة حياته، وأن في تناول الحليب سر بقائه، لكنه رفض الاستجابة لطلب "يودا"، ومَن معه من ضباط السجن، وأحجم بشموخ عن تناول الكأس.

أعادوا القيد إلى معصميه. ألقى "يودا" الطويل القامة بثقله على جسد عبد القادر العليل النحيل. لوّح له بـ "بربيش" التغذية القسرية ("الزوندا" كما يسميها السجان)، وخاطبه بابتسامة مفتعلة مهدداً:

ـ "تناول الكأس بمفردك، فهذا أفضل لك من تناوله عبر هذا 'البربيش' " لكن عبد القادر أصر على موقفه برفض كسر الإضراب من دون تلبية المطالب.

بدأ "يودا" عملية إدخال "البربيش" في فم عبد القادر، وكلما اصطدم بمقاومة إغلاق الفم كان يحاول إدخاله في فتحة الأنف. وظل يُدخل "البربيش" ويُخرجه مرات عدة، حتى اختلط لونه بحمرة دم سال من مكان ما، وصار الحليب يتدفق نحو الفم وخارجه، وراح "يودا" يكرر العملية مع مسح حمرة "البربيش" بقطعة قماش.

في اليوم الرابع (١٩٧٠/٧/٨) حضر ضابط "العدد" "موشيه"، ودخل أول غرفة من غرف السجن، وسأل:

ـ "هل من طلبات؟"

ـ "لقد تقدمنا بها إليكم."

ـ "أين 'حاضر يا سيدي؟'."

ـ "انتهى زمانها ولن تعود!!"

ـ "أنتم مصرون على عدم النطق بها؟"

ـ "إلى الأبد."

ـ "لكن هذا حقي ضمن قوانين السجن!!"

ـ "كلا، هذا طغيان لا يجيزه أي قانون سماوي أو بشري."

ـ "حسناً نستبدلها بـ 'حاضر يا سيد'."

ـ "كلا".

بصورة مفاجئة، حضر مدير السجن "حابوت الإمبراطور" كما كان يسميه الأسرى، فطاف على الغرف، واتسمت كلماته مع الأسرى بلين غير معهود لم تستطع إخفاءه ملامح تقطيب الجبين. لم يَدُر في خلد الأسرى أن هذا اللين، وما رافقه من موافقة على تلبية بعض مطالبهم الأساسية، كانا لقاء ثمنٍ باهظ، أي حياة عبد القادر الذي رحل ليكون أول شهيد فلسطيني في معارك الإضراب المفتوح عن الطعام.

رحل عبد القادر، ورحلت معه إلى الأبد مخاطبة الأسير الفلسطيني لسجانه بـ "حاضر يا سيدي". وربما لا يدري مَن دخل السجن من الفلسطينيين لاحقاً أن نبض حياة عبد القادر الذي سال على "بربيش التغذية القسرية (الزوندا)"، كان الحد الفاصل بين مرحلتين في تاريخ الأسرى الفلسطينيين: مرحلة الاستكانة لعبودية "حاضر يا سيدي"، ومرحلة التمرد الحر المُنظّم وإلغائها من قاموسهم.

تلك قصة حياة "الأول" عبد القادر أبو الفحم تُروى كي لا تنسى الحرية الشهداء الذين سقطوا في سبيلها، ولأن كل فعل لا يُروى يُنسى، ولأن "رواية الصياد لا تسود إلاّ بغياب رواية الأسود" بمنطوق ذلك المثل الإفريقي الجميل. ■